شرح كتاب تُحفة الأخيار

(المجلس الرابع)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلَّى الله وسلَّم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد..

فنُواصل القراءة في هذا الكتاب المبارك والمؤلَّف القيِّم كتاب: [**تُحفة الأخيار**] للإمام العلَّامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المتن:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله..

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ». فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك. قال: «أَفَلَا يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلاثٌ خَيْرٌ له مِنْ ثَلاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ له مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنْ الإِبِلِ».

الشرح:

بدأ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هُنا بذكر جُملة من الأدلة -أدلة القرآن الكريم-، ومن أدلة السُّنَّة النبوية المطهرة في بيان فضل تلاوة القرآن الكريم، وعِظم شأنه، وما يترتب على تلاوته من الأجور العظيمة والأفضال المباركة على التَّالي لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا في الدنيا والآخرة.

والقرآن الكريم هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وفضل القرآن كفضل خالقه جَلَّ وَعَلَا كما قال بعض السلف: "من أراد أن يعرف الفرق بين كلام المخلوقين وكلام الخالق؛ فهو كالفرق بين الخالق والمخلوقين"، فكلام الله عَزَّوَجَلَّ هو وحيُه وتنزيله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي أنزله على عباده هُدًى ورحمةً وضياءً ونورًا للمتقين، جعله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كتابًا مباركًا يهدي للتي هي أقوم، ويدل للتي هي أرشد، ويدعو إلى صراطٍ مستقيم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٩].

وفضائل القرآن وثماره وآثاره ومنافعه وعوائده على أهل القرآن لا حدَّ لها ولا عد.

والله عَزَّوَجَلَّ طرح في هذا القرآن بركة، كما قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [سورة ص، من الآية:٢٩]؛ فهو كتابٌ مُبارك، ونزل في ليلةٍ مباركة، وأُنزل على نبيٍّ مبارك ورسولٌ مبارك -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ-، فهو خير كتابٍ أُنزل على خير رسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو خاتمة الكُتب المُنزَّلة.

وتلاوة القرآن نفسها هي من جُملة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فالله يُذكر بالتسبيح والتحميد والتهليل وغير ذلك من الأذكار، ويُذكر تَبَارَكَ وَتَعَالَى أيضًا بتلاوة كتابه.

بل قال العلماء: "إن تلاوة القرآن الكريم أفضل الذكر"؛ أفضل الأذكار مطلقًا، لكن قد يأتي أحوالٌ معينة يكون فيها المفضول خيرًا من الفاضل، فمثلًا تلاوة القرآن هي أفضل الأذكار مطلقًا، لكن إذا أذَّن المؤذِّن؛ إجابة النداء أفضل.

أيضًا الإتيان بأذكار الصباح في وقتها، وأذكار المساء في وقتها خيرٌ من تلاوة القرآن في ذلك الوقت، الإتيان بالأذكار التي تكون دُبر الصلاة أفضل من تلاوة القرآن، فتلاوة القرآن هي أفضل مُطلقًا، لكن قد يأتي أمورًا تجعل المفضول خيرًا من الفاضل أي في ذلك الوقت.

ولهذا ذكر العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في الباب -باب المفاضلة والتفضيل- قاعدةً عظيمة النفع للمسلم، أَلَا وهي: أن الأفضل في كل وقتٍ الأوفق للسنة في ذلك الوقت. هذه قاعدة فريدة ونافعة جدًّا: [الأفضل في كل وقت هو الأوفق للسنة في ذلك الوقت].

فمثلًا إذا كان وقت أذان والمؤذن يؤذن أفضل الأعمال وقت الأذان أن تستمع للأذان وتُردد مع المؤذن، وقت الصلاة تؤدي الصلاة، الأذكار التي بعد الصلاة تأتي بها، الأفضل في كل وقت الأوفق للسنة في ذلك الوقت.

وقت أذكار الصباح والمساء الإتيان بالأذكار المرتبة الموظفة الواردة في السنة في الصباح والمساء الإتيان بها في وقتها أفضل، فالأفضل في كل وقتٍ هو الأوفق للسنة في ذلك الوقت، وهذه قاعدة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من أهل العلم في مسألة التفضيل بين العبادات، لكن من حيث الإطلاق القرآن أفضل الذكر.

وجاء في الحديث: «**أَحَبُّ الكَلامِ إلى اللهِ** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: **سُبْحانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، ولا إلَهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ**». جاء في بعض الروايات: «**بَعْدَ القُرْآنُ وَهُنَّ مِنَ الْقُرْآنُ**».

فـ (**سُبْحانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، ولا إلَهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكْبَرُ**)؛ هذه الكلمات الأربع هي أفضل الذكر على الإطلاق، وهي أفضل الكلمات، ولكن القرآن الذي هو كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أفضل، وهذه الكلمات كما جاء في بعض ألفاظ الحديث هي من القرآن، قال: «**وَهُنَّ مِنَ الْقُرْآنُ**».

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخذ يسوق جُملةً من الأحاديث -الأحاديث النبوية- عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيان فضيلة القرآن وتلاوته.

وأيضًا ضمن الأحاديث التي أوردها نبَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من خلالها أن المطلوب في القرآن ليس مجرد التلاوة، وإتمام الحروف، بل لا بد من أمورٍ ثلاثة:

- حُسن التلاوة.
- وحُسن الفَهم.
- وحُسن العمل.

والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٢١]؛ قال العلماء: تلاوة القرآن حقَّ تلاوته تكون بهذه الأمور الثلاثة:

- حُسن التلاوة والقراءة.
- وحُسن الفَهم والتأمل والتدبر لكلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.
- وحُسن العمل والتطبيق لأوامر القرآن الكريم.

والعمل والاتباع للقرآن نفسه يُسمى تلاوة، وقد دل على هذا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [سورة الشمس، من الآية:٢]؛ أي تبعها.

فاتباع القرآن بالعمل به، وإقامة حدوده، وفعل الأوامر، واجتناب النواهي؛ هذا كله داخل في تلاوة القرآن.

فتلاوة القرآن تشمل: حفظ القرآن، حُسن ترتيله، حُسن فهمه، والقيام بالأوامر والنواهي التي جاءت في القرآن الكريم، ولهذا الذين يقرأون القرآن ليسوا على رتبةً واحدة، بل إنهم متفاوتون كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلِ الأُتْرُجَّةِ؛ طَعْمُهَا طَيِّب وَ رِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ مَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا حُلْوٌ وَ لا رِيحَ لَهَا ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ؛ طَعْمُهَا مُرٌّ وَ رِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَ رِيحٌ لها**».

فترى الطيب كله مع القرآن سواءً من حيث الطعم أو من حيث الريح، فمن كان من أهل القرآن إيمانًا واحتسابًا وعملًا وتلاوةً وتدبرًا اجتمع فيه طيب الرائحة وطيب الطعم، كما هو في هذا المثل الذي ضربه النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

والشاهد من الحديث: أن من يتلون القرآن ليسوا فيه على درجةٍ واحدة، وقد يتلو القرآن المنافق كما هو واضح في الحديث، ووصف النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تلاوة القرآن بأنها مثل الريحانة، الريحانة تعجبك رائحتها، رائحتها زكية وجميلة، وإذا مررت بجوار شجر الريحان ربما تقف قليلًا حتى تستنشق هذه الرائحة الجميلة الطيبة.

فالمنافق قد يتلو القرآن، وقد يكون صوته جميلٌ بالقرآن، وقد يقف الناس يستمعون إلى تلاوته، ولكن القرآن ليس معه، ليس محققًا له، ليس قائمًا بحدوده.

ولهذا تحدث الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو من أجلة التابعين عن بعض قراء زمانه قال: "يقول أحدهم: قرأت القرآن كله ولم أُسقط منه حرفًا -يقصد أنه أتقن حروفه ومخارجه إلى آخره-، ولم أُسقط منه حرفًا، وقد أسقطه والله كله، لا يُرى عليه القرآن في خلقٍ ولا عمل".

ثم قال الحسن: "والله ما هؤلاء بالقرَّاء، ولا الحُكماء، ولا الورعَة، ليسوا هؤلاء قرَّاء القرآن، قراء القرآن يظهر عليهم أثر القرآن في عبادتهم في أخلاقهم، في عبادتهم، في آدابهم، في معاملاتهم، مثل ما قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لما سُئلت عن خُلق النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قالت: "كان خُلقه القرآن"، ولهذا يقول الحسن نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ البصري يقول: "أُنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملًا"؛ يعني اعتنوا فقط بحفظه، وتلاوته، والعناية بمخارجه، وتجويده، وما إلى ذلك، وكل ذلك طيب وحسن، لكن لا يكون على حساب العمل بالقرآن، وإهمال هذا الأمر العظيم الذي أُنزل لأجله القرآن. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٩]. يدل العباد للتي هي أرشد، وهذا لا يتحقق بمجرد تلاوة حروف القرآن، لابد من فهم معانيه والعمل بذلك.

فالشاهد: أن تلاوة القرآن هي من جُملة الذكر -ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-، ولا يكفي في التلاوة مجرد تلاوة الحروف، بل لا بد من الفهم، ولا بد أيضًا من العمل، وكان بعض الصحابة يمكث في السورة الواحدة زمنًا طويلًا، ابن عمر مكث في البقرة سبع سنوات يُقال، وهذا المُكث في هذه السورة لهذه المدة الطويلة ليس لمجرد الحفظ، حفظ حروف سورة البقرة يكفيه شهر، أو شهرين، أو ثلاثة، أو أربعة، لكن هذا المُكث لتلك المدة الطويلة هو تأمل وتدبر وعناية لفهم القرآن وإقامة لحدوده، وامتثال لأوامره، ولهذا جمع الصحابة بين العلم والعمل في تلاوتهم لكتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

أورد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا حديث عُقبة بن عامر في صحيح مسلم، (**قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ**)؛ والصُّفَّة هذه مكان في مؤخرة المسجد وكان يأوي إليه الفقراء والمحتاجين.

فيقول: أتى إلينا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن في الصُّفَّة، والموجودون في الصفة الغالب عليهم الفقر والحاجة، فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ**»؛ واديان معروفان من المدينة، وادي بطحان ووادي العقيق، فيقول: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ**»؛ من يُحب منكم ذلك؟ لا شك أن الجميع يحب هذا الأمر، قالوا: نعم نحب ذلك، ولاحظ أيضًا الطريقة الجميلة التي يستعملها نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعليم، والتشويق للخير والترغيب فيه، وشد أذهان السامعين، وانتباههم إلى الفائدة، أيكم يحب كذا؟ ثم يذكر الأمر، وتشتاق إليه القلوب، وتحب أن تسمعه، وتستعد النفوس لسماعه ثم يُخبرهم، كثيرًا ما يستعمل هذه الطريقة المُباركة في أحاديثه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- وهذا من كمال نُصحه.

ولا شك أن النفع في هذه الطريقة أكبر من النفع بإلقائه العلم بدون تشويق، مثلًا لو قال: "من جاء إلى المسجد وقرأ آيتين من كتاب الله وتعلمهما؛ فهما خيرٌ له من ناقتين"، المقصود حصل، والمعنى المُراد حصل، لكن هل أثر هذه الطريقة في التعليم والبيان مثل الطريقة التي استعملها النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ لا.

ولهذا كثيرًا ما يستعمل نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الطريقة وهذا من كمال نصحه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

قال: (**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ**)؛ يعني ممتلئتين؛ ناقة سمينة ممتلئة، فمن منكم يحب يوميًا هذا بها هذا الوادي ويُحضر منه ناقتين بهذه الصفة يوميًا، (**فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ**)؛ يعني: دون أن يقع مشاكل عندما تأخذ هاتين الناقتين، دون أن يقع مشاكل، أو خصومات، أو عدوان، أو تقاطع، أو تهاجر؛ تأخذها بكل ارتياح وبكل طمأنينة، من منكم يحب ذلك؟

فماذا قالوا: قالوا: يا رسول الله! نحب ذلك، يعني كلنا نحب هذا الأمر، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (**أَفَلَا**)؛ وانظر أيضًا الترغيب. (**أَفَلَا يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيَعْلَمَ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ **خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ له مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ له مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ**)؛ فأرشد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى أن إتيان المسجد بهذه النية المباركة أن يتعلم فيه المسلم آيتين من كتاب الله أو ثلاث أو أربع؛ فهذا خيرٌ له، آيتين خيرٌ من ناقتين، وثلاث آيات خيرٌ من ثلاث نوق، وأربع آيات خيرٌ من أربع نوق، وكلما زدت زاد الخير، وفضل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى واسع.

وهذا فيه لفتة يا إخوان مهمة! وهي أن العلم النافع والعناية بالقرآن والعناية بذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى خيرٌ من الدنيا وما فيها؛ لأن النوق كانت عندهم خير المال، وأطيب المال، وأحسن المال. فإذا قال: إنها خيرٌ من النوق فمعنى ذلك أنها خيرٌ من الدنيا وما فيها؛ لأن أطيب ما كان عندهم من المال في وقتهم هي النوق.

ولهذا في حديث علي بن أبي طالب قال له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرُ النَّعَمِ**»؛ والمراد بحمر النعم أي: النوق الحمراء الطيبة الجميلة الحسنة التي هي كانت خير ما يملكه العرب من المال.

فهذا فيه فضيلة قراءة القرآن وتعلمه، وأيضًا في المسجد؛ لأنه قال: (**أَفَلَا يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ**)؛ فإتيان المسجد بهذه النية الطيبة لتعلم القرآن، وقراءة القرآن، وتدبر القرآن، والتفكر في معاني القرآن؛ خيرٌ للعبد من النوق إن كانت آيتين فخير من ناقتين، إن كن ثلاث فخيرٌ من ثلاث، أربع فخيرٌ من أربع، وكلما زدت زاد نصيبك وحظك من الأجر.

المتن:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي صحيح البخاري عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**».

الشرح:

وهذا الحديث -حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في صحيح البخاري- فيه شهادة كريمة وثمينة من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأهل القرآن تعلمًا وتعليمًا، حيث شهد لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخيرية، قال: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»؛ يعني: خير الناس خير أهل الإيمان خير عباد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من هو مشتغلٌ بتعليم القرآن، أو مشتغلٌ بتعلُّم القرآن.

فمن كان مشتغل بالقرآن الكريم تعلمًا أو تعليمًا؛ فله هذه الشهادة المباركة من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالخيرية، ولاحظوا الخيرية هُنا مرتبطة بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فكلما قَوِيَ عناية العبد بهذا الكتاب علمًا وتعلُّمًا وتعليمًا؛ زاد نصيبه وحظه من الخيرية.

وإذا عرفنا أن الناس متفاوتون في هذا الباب؛ أي العناية بالقرآن من حيث التلاوة من حيث الفهم، من حيث العمل بالقرآن الكريم، إذا علمنا أن الناس متفاوتون في هذا الأمر والخيرية مرتبطةٌ بذلك؛ فهذا دليل على أن الناس متفاوتون في ماذا؟ في الخير، متفاوتون في الإيمان.

ولهذا الحديث من الدلائل الواضحة على أن أهل الإيمان متفاوتون في الإيمان، ليسوا في الإيمان على درجةٍ واحدة.

ومن أسباب تفاوتهم في الإيمان تفاوتهم في العناية بالقرآن الذي هو أساس الإيمان، وأساس السعادة في الدنيا والآخرة.

ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في بيان هذا الأمر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٣٢].

المتن:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وفي صحيح مسلم عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**».

الشرح:

فيما يتعلق بالحديث الأول -حديث عثمان- هناك أثر جميل عند ابن مسعود الصحابي الجليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول فيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "من كان يُحب أن يعلم أنه يُحب الله فليعرض نفسه على القرآن، فإن أحب القرآن فهو يُحب الله، فإنما القرآن كلام الله".

ولهذا عناية العبد بهذا الكلام العظيم كلام رب العالمين المُنزَّل منه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، الذي تكلم به هو تَبَارَكَ وَتَعَالَى نفسه، ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة السجدة، من الآية:٢]؛ فليعرض -يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- نفسه على القرآن، فما شأنه معه، هل هو يحب القرآن؟ هل هو يحب تلاوة القرآن؟ هل هو يحب العمل بالقرآن وإقامة حدود القرآن؟ أم أن هذا الجانب فيه ضعيف.

فهذا طريقة امتحان النفس والنظر لقوة إيمانها وقوة صلتها وقوة تعظيمها لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يقيس نفسه في هذا الباب على ضوء عنايته بكتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ما جاء في صحيح مسلم عن أبي أُمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (**سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ»**).

(**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ**)؛ هذا فيه أمرٌ بقراءة القرآن وتلاوته، ثم أتبع ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بذكر فضيلة من فضائل تلاوة القرآن وثمرةٍ عظيمة من ثمار تلاوته والعناية به، قال: (**فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**)؛ أي: يشفع لأصحابه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يشفع لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والأمر كما أخبر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يجب أن نُمرَّ هذا الحديث وهو خبر عن أمرٍ غيبي يقع يوم القيامة، فيجب أن نُمره كما جاء، وأن نؤمن به كما ورد كما أخبر به نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

نبينا ماذا قال؟ قال: (**يَأْتِي**)؛ من هو الذي يأتي؟ القرآن، قال: (**يَأْتِي القرآن يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**)؛ فنحن نسوق الخبر ونؤمن به كما جاء ونقول: إن القرآن يوم القيامة يأتي شفيعًا لأصحابه؛ يعني: يشفع لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كيف يشفع؟

يقول لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: إنه كانوا يتلوني، ويقرؤوني آناء الليل وأطراف النهار، كان يُقيم حدودي، فيشفع عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ويشهد لأصحابه بأنهم من أهله؟ ومن أهل تلاوته، فيأتي القرآن شفيعًا لأصحابه يوم القيامة، يشفع لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لتعلو درجاتهم وترتفع منازلهم عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

فالشاهد: أن هذا خبرٌ صادقٌ عن الصادق المصدوق -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- في شأن القرآن يوم القيامة وأنه يأتي يوم القيامة يشفع لصاحبه، وسيأتي معنا أيضًا رواية أخرى أو حديث آخر فيه بيانٌ لهذا المقام العظيم.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي صحيح مسلم أيضًا من حديث النوَّاس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يُؤْتَى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِه تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ وآلُ عِمْرانَ**»، وضَرَبَ لَهُمَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلاثَةُ أَمْثَال مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ: «**كَأَنَّهُما غَمامَتانِ، أَوْ ظُلَّتانِ سَوْداوانِ بَيْنَهُما شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُما حِزْقانِ مِن طَيْرٍ صَوافَّ، تُحَاجَّانِ عَن صَاحِبِهِما**».

الشرح:

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث في صحيح مسلم حديث النوَّاس بن سمعان عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (**يُؤْتَى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ**)؛ يعني: يؤتى به وبأهله، يؤتى بالقرآن ويؤتى بأهل القرآن. (**الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِه**)؛ ضع تحتها خط أو خطين أو ثلاثة. (**يُؤْتَى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ**)؛ أهل القرآن من هم؟ يأتيك الجواب هُنا في الحديث، إذا قيل: من هُم أهل القرآن؟

أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، قال: (**الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِه**)؛ فلا يكون الإنسان من أهل القرآن بمجرد تلاوة حروف القرآن، مرَّ معنا قريبًا أن المنافق قد يتلو القرآن وتكون تلاوته للقرآن مثل الريحانة، لها رائحة جميلة زكية طيبة، لكنه هو في نفسه مُر الطعم؛ لأنه ليس من أهل القرآن.

فبمجرد التلاوة وإقامة الحروف لا يكون الإنسان من أهل القرآن، بل لا يكون من أهله إلا إذا أقام حدود القرآن وعمل به.

ولهذا تأمل الحديث مرةً وثانيةً وثالثة، قال: (**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ**)؛ من هُم؟ قال: (**الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ**)؛ وبهذا يُعلم أن العبد لا يكون من أهل القرآن إلا إذا عمل بالقرآن.

والعمل بالقرآن يحتاج أيضًا إلى مرحلة أخرى غير التلاوة وهي ماذا؟ الفهم، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [سورة ص، من الآية:٢٩]، ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٦٦-٦٨]؛ يعني لو تدبروا القول لما نكصوا إلى الوراء، ولما رجعوا على الأعقاب، فتدبر القرآن يهتدي به العبد للتي هي أقوم، ويهدي للتي هي أرشد، القرآن كتاب هداية. ولكن متى تنال القلوب هذه الهداية بالقرآن الكريم إلا إذا ماذا؟ إلا إذا تدبر، إلا إذا تفهم، إلا إذا عقل عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى خطابه.

أروي لكم قصةً جميلة فيها فائدة ذكرها ابن قُدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن الأصمعي**: الأصمعي كان رجلًا رحَّالًا -يعني يتنقل في البلدان-، فيقول الأصمعي: أنني لقيت في بعض البلدان رجلًا من الأعراب -أعرابي-، فقال لي: من أنت؟ -يسأل الأصمعي يقول له: من أنت؟- قال: من بني الأصمع، قال: لعلك الأصمعي، قال: أنا هو -مشهور كان في زمانه-، فقال: من أين جئت؟ الأعرابي يسأل الأصمعي، قال: من أين جئت؟ قال: جئت من بلادٍ يُتلى فيها كلام الرحمن.

قبل هذا يقول: القصة يقول الأصمعي: لقيني أعرابي جلفٌ على ناقته، يعني فيه شيء من الجلافة والشدة على ناقته، ولما وقف عندي وهو على الناقة سألني، إلى آخر ما ذكرت لكم. قال: من أين جئت؟ قال: جئت من بلدٍ يُتلى فيه كلام الرحمن.

فقال الأعرابي فوق الناقة قال: أوَ للرحمن كلامٌ يتلوه الآدميين؟ يعني ما استمع بهذا من قبل، قال: أوَ للرحمن كلامٌ يتلوه الآدميين؟ هل يوجد للرحمن كلام يتلوه الناس؟ قال: نعم، قال: أسمعني شيئًا منه، قال: أنزل عن دابتك أُسمعك، فنزل الأعرابي من الدابة يقول: وبدأت أقرأ عليه سورة الذاريات حتى وصلت إلى قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [سورة الذاريات، من الآية:٢١-٢٢]؛ فقال لي: أوَ هذا كلام الرحمن؟ قلت: إي والله هذا كلام الرحمن، ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾؛ الرجل فهم الكلام ووعاه ودخل الكلام في قلبه؛ لكنه استوثق، قال: أوَ هذا كلام الرحمن؟ قلت: إي والله هذا كلام الرحمن.

قال: أمسك ناقتي، يقول: فمسكتها، فنحرها، نحر الناقة وقطَّعها وقال: ساعدني على توزيع لحمها، يقول: ومضى وهو يقول: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾؛ جاء من الله سبحانه انظر الثقة والإيمان وقوة الاعتقاد، أعرابي جلف يقول قبل قليل، ولما سمع هذه الآية وملئت قلبه إيمانًا ضمن ذلك، فنحر ناقته وقسَّم لحمها، ومشى يقول: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

يقول الأصمعي: ثم لقيته بعد سنوات في مكة، وعرفته وعرفني، فقال لي: أقرأ عليَّ من كلام الرحمن، فقرأت عليه سورة الذاريات حتى وصلت قول الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾؛ قال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، أقرأ علي، يقول: فقرأت: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [سورة الذاريات، من الآية:٢٣]. ماذا قال الأعرابي؟ قال: ومن أغضب الجليل حتى يحلف؟ من أغضبه حتى ألجأه إلى اليمين؟ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ يعني لو أخبرنا بدون يمين؟! نصدق، من ألجأه إلى اليمين، من أغضب الجليل حتى يحلف لنا ويطيل هذا اليمين: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أعرابي، ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾؛ قال: من الذي أغضب الجليل وألجأه إلى اليمين؟

فالشاهد: أن القرآن له أثر إلى عمق القلب وصميمه، لكن متى؟ متى يأتي هذا الأثر إذا كان الإنسان لا يتدبر ولا يعقل الخطاب، ولا يتذكر في معاني كلام الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولهذا جاءت الآيات الكثيرة في القرآن في الحث على تدبر القرآن.

قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [سورة محمد، من الآية:٢٤]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:٨٢].

وهو بالمناسبة يحسن بالمبتدأ أن يبدأ أولًا في فهم القرآن ومعرفة معاني القرآن بـ[**التفسير الميسر**] الذي طُبع في المجمع -مجمع الملك فهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، ثم ينتقل بعد ذلك إلى تفسير العلامة ابن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم بعد ذلك ينتقل إلى الكتب الأخرى التي كتبها وألَّفها أئمة السلف في هذا الباب.

قال: (**يُؤْتَى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ**)؛ أي: ويؤتى بأهله. (**الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ**)؛ يعني: تقدم القرآن. (**سُورَةُ البَقَرَةِ وآلُ عِمْرَانَ**).

(**وضَرَبَ لَهُمَا**)؛ أي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (**ثَلاثَةُ أَمْثَال**)؛ يعني: ضرب ثلاثة أمثال لسورة البقرة وآل عمران وهما تقدمان القرآن.

فقال: (**مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ**)؛ وهذا من تأكيد الراوي أو الصحابي على حفظه واتقانه الحديث، قال: (**مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ**)؛ أي بعد سماعه لهن من رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(**قَالَ**: «**كَأَنَّهُما غَمامَتانِ، أَوْ ظُلَّتانِ سَوْداوانِ بيْنَهُما شَرْقٌ**»)؛ أو شَرَقٌ، شَرْقٌ أي ضياء، ومنه: أشرقت أي أضاءت الشمس، فبينهما شرقٌ أي: ضياء ونور، فتأتي البقرة وآل عمران تقدمان القرآن وبينهما شرق يعني بين هاتين الغمامتان شرقٌ يعني بينهما نور وضياء، يكسو المكان الذي بين الغمامتين، فهما غمامتان وبينهما ضياءٌ ونورٌ.

قال: (**بيْنَهُما شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُما حِزْقانِ مِن طَيْرٍ صَوافَّ، تُحَاجَّانِ عَن صَاحِبِهِما**)؛ الحِزق الجماعة من كل شيء، وهُنا حدَّد، قال: (**كَأَنَّهُما حِزْقَانِ مِن طَيْرٍ صَوافَّ**)؛ يعني: طير متلاحمة متصافة بعضها إلى بعض، فـ(**كَأَنَّهُما حِزْقَانِ**)؛ يعني فرقان أو جماعتان. (**مِن طَيْرٍ صَوافَّ**)؛ يعني متصافة ملتئمة مجتمعة بعضها إلى بعض.

(**تُحَاجَّانِ عَن صَاحِبِهِما**)؛ يعني: البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة بهذه الصفة تحاجان عن صاحبهما، أي ماذا تقولان؟ ما هي المُحَاجَّة؟ شفاعة له عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإخبار بأنه لا يزال ولا يزال يتلو ويقرأ هاتين الزهراوان: البقرة وآل عمران. فتأتيان يوم القيامة تُحاجان عن أصحابهما.

وأيضًا ينبغي أن يُلاحظ ما أُشير إليه في الحديث قضية العمل، (**الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِهِ**)؛ لا ليقرأه الإنسان قراءة مجردة دون فهم أو دون عمل في القرآن، بل لا بد في تلاوة القرآن حق التلاوة من فهم المعنى، والعمل بما يقتضيه القرآن.

المتن:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**» رواه الترمذي بسندٍ حسن.

الشرح:

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث -حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيان فضيلة من يقرأ القرآن. قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا**)؛ ثم مزيدًا من البيان من نبينا الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قال: (**لَا أَقُولُ (الم) حَرْفٌ**)؛ (الم) وغيرها أيضًا من الحروف المقطعة التي تأتي في أوائل السور: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓمٓرٓ﴾، ﴿الٓرٰ﴾، ﴿حمٓ﴾، فهذه الحروف المقطعة ليست حرفًا واحدًا، بل الألف حرفٌ، واللام حرفٌ، والميم حرفٌ، فإذا قرأت سورة البقرة وبدأت: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١-٢]؛ فلك في قراءتك لـ ﴿الٓمٓ﴾ ثلاثون حسنة، ليست ﴿الٓمٓ﴾؛ حرفًا واحدًا فيكون لك به حسنة واحدة والحسنة بعشر أمثالها، فتحظى بعشر حسنات، بل ﴿الٓمٓ﴾؛ هذه ثلاثة حروف وفي الحرف عشر حسنات؛ فمجموع ما لك في قراءتك لـ ﴿الٓمٓ﴾، ثلاثون حسنة. وإذا استمريت في القراءة فلك بكل حرفٍ عشر حسنات.

قال: (**لَا أَقُولُ (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**)؛ وهذا فيه فضل قراءة القرآن، وكلما زاد العبد من القراءة زاد حظه ونصيبه من هذا الأجر العظيم.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وثبت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديث كثيرة تدل على فضل الذكر، والتحميد، والتهليل، والتسبيح، والدعاء، والاستغفار كل وقت، وفي طرفي الليل والنهار، وفي أدبار الصلوات الخمس بعد السلام نذكر بعضها.

الشرح:

ثم أن المصنف -رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَغَفَرَ لَهُ- لما انتهى مما أراد إيرادًا من الأحاديث الواردة في فصل تلاوة القرآن والعمل به، انتقل للكلام على فضل الذكر، والتحميد، والتهليل، والتسبيح، والدعاء، والاستغفار في كل وقتٍ وحين، وفي أدبار الصلوات، ولهذا سيسوق الآن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة طيبة ونُخبة مباركة من الأحاديث عن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في فضل التسبيح، فضل التهليل، فضل التكبير، فضل الاستغفار، فضل الدعاء، وسيسوق في هذا أحاديث طيبة ونافعة.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمن ذلك قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**». قالوا: وما المُفَرِّدُونَ يا رسول الله! قال: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**». رواه مسلم.

الشرح:

هذا الحديث فيه فضيلة الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، وقد سبق أن مرَّ معنا عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جُملة من الآيات فيها الأمر بذكر الله بالكثرة، وأيضًا مرَّ معنا الثناء على الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، وأن الله أعدَّ لهم مغفرةً وأجرًا عظيمًا.

فهذا الحديث فيه عِظم مكانة الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، وبيان ذلك أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهد لهم في هذا الحديث بماذا؟ بالسبق، قال: (**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**)؛ أي: سبقوا غيرهم، فالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قالوا: يا رسول الله! مَنِ المُفَرِّدُونَ؟ نرجع إلى كلامه قبل قليل في طريقة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بماذا؟ بالتعليم وتشويق من عنده، قال: (**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**)؛ وسكت، بدأ الآن في الذهن أيش؟ تساؤل، من هم هؤلاء؟ من هم هؤلاء السابقون؟ ومن المراد بالمفردين الذين أثنى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عليهم؟

فيأتي هذا التساؤل في الذهن: سبق المفردون، من هُم؟ لاحظ أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل: سبق المفردون وهم الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات؛ بل أعطى فرصةً للأذهان حتى تشتغل، و تبدأ تتساءل وتشتاق القلوب، وهذه طريقة بديعة وعظيمة جدًا في تعليم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمور الخير.

قال: (**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**)؛ وسكت، بدأت الأذهان تتساءل، والقلوب تشتاق، من المفردون؟ قلنا: يا رسول الله! مَنِ المُفَرِّدُونَ؟ وهذا سؤال كأنه طرحه الجميع؛ لأنهم اشتاقوا وتاقت قلوبهم لمعرفة من هؤلاء، فقالوا: مَنِ المُفَرِّدُونَ؟ فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**).

فالحديث فيه شهادة للمُكثرين من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالسبق على غيرهم.

المتن:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ**» رواه مسلم.

الشرح:

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في صحيح مسلم، قال: (**أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**)؛ أيضًا جاء في حديثٍ آخر عن نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»؛ الشمس تطلع على ماذا؟ على الدنيا كلها، الشمس تطلع على الدنيا كلها، فكأنه قال: أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها.

(**لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**)؛ أي كأنه قال: أحب إليَّ من الدنيا وما فيها؛ لأن الشمس تطلع على الدنيا كلها وما فيها.

وهذا الحديث الذي ساقه المصنف فيه أن هؤلاء الكلمات الأربع هُنَّ أحبُّ الكلام إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهُنَّ أيضًا خير الباقيات الصالحات، والباقيات الصالحات ليست هي الكلمات الأربع فقط؛ بل الكلمات الأربع: (**سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**)؛ هي خير الباقيات الصالحات وأفضلها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي أحب الكلام إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والمسلم عندما يعلم من هذا الحديث أن هؤلاء الكلمات الأربع هُنَّ أحبُّ الكلام إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا يدفعه إلى ماذا؟ إلى المزيد والإكثار من هؤلاء الكلمات الأربع في كل أحايينه: (**سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**)، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: (**لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ**)؛ يعني: سواءً بدأت بالتهليل، أو بدأت بالتحميد، أو بدأت بالتكبير؛ فلا يضرك بأيهنَّ بدأت.

ثم مما يُلفت الانتباه إليه: أن من يأتي بهذه الكلمات الأربع ينبغي عليه ألَّا يأتي بها إتيانًا مجردًا بدون فهم معانيها، ودون تحقيق مقاصدها؛ لأن الأذكار المأثورة كما قال العلماء: إذا كانت بدون فهم تكون ضعيفة أو عديمة التأثير، فلا بُدَّ من فهم المعنى.

فإذا قلت: (**سُبْحَانَ اللهِ**) عليك أن تفهم ماذا تعني كلمة: سبحان الله، وإذا قلت: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**)، عليك أن تفهم ماذا تعني كلمة: الحمد لله.

وإذا قلت: (**اللهُ أَكْبَرُ**)؛ عليك أن تفهم ماذا تعني هذه الكلمة، وإذا قلت: (**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**)؛ عليك أن تفهم ماذا تعني هذه الكلمة، أما أن يقول الإنسان كلامًا لا يدري ما هو؛ فهذا يكون ضعيف التأثير إن لم يكن عديم التأثير.

و(**سُبْحَانَ اللهِ**)؛ هذه كلمة تنزيهٍ، أُسبح الله أي أُنزه الله وأقدسه عما لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال الله في القرآن: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الصافات، من الآية: ١٨٠]؛ أي: تنزَّه وتقدَّس عما يصفه به أعداء الرُّسل؛ فالتسبيح تنزيه الله.

والتكبير تعظيم الله وتعليته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واعتقاد أنه لا أكبر منه، مثل ما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لعدي في بداية إسلامه، قال: «**يَا عَدِي! مَا يُفِرُّكَ؟**»، يعني: ما الذي يجعلك تفر من الإسلام ولا تُقبل عليه؟ «**مَا يُفِرُّكَ؟ أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَهَلْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ؟**» ثم قال ياعدي: «**ما يُفِرُّكَ؟ أَيُفِرُّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، وَهَلْ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ؟**»، قوله: (**وَهَلْ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ؟**)؛ هذا يُبين لنا أيش؟ معنى؟ الله أكبر، (**اللهُ أَكْبَرُ**) يعني اعتقاد عند المؤمن بأن الله أكبر من كل شيء، وأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَى الكبير المتعال الذي لا أكبر منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(**والْحَمْدُ لله**)؛ الثناء على الله مع حبِّه سبحانه، الثناء عليه على أسماءه الحسنى وصفاته العلى، والثناء عليه أيضًا على نعمه وعطاياه ومِننه التي لا تُعدُّ ولا تحصى.

(**ولا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**)؛ هذه كلمة التوحيد، وهي أفضل الكلمات، وأحبُّها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، (**وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**)؛ معناها: لا معبود بحقٍّ إلَّا الله.

فهذه الكلمات مع تكرار المسلم لها وترداده لها في الأوقات والأحايين؛ ينبغي أن يكون معه فهمٌ وتأملٌ وتدبرٌ وعقلٌ لمعاني هذه الكلمات، والسلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ قديمًا نبهوا على ذلك.

أروي لكم قصة جميلة ومفيدة تُبين لنا عناية السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ بمعاني الأذكار، وأيضًا تأكيدهم على ضرورة فهم معانيها:

جاء في [**الحلية**] لأبي نُعيم وفي مصادر أخرى: أن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ لقي رجلًا وهذا الرجل جاوز الستين من عمره، وكان عنده بعض التقصير وبعض التفريط. فقال له الحسن البصري: كم بلغت من العُمر؟ قال: بلغتُ ستين سنة، قال: أوَ ما علمت أنك في طريقٍ وقد أوشكت أن تبلغ نهايته؟! -يعني نهاية الطريق-، فقال الرجل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

فقال له الحسن: أَوَ تعرف تفسيره؟ -يعني هذا الكلام الذي قلته أَوَ تعرف تفسيره؟- هذا موضع الشاهد لسياق هذه القصة، قال: أوَ تعرف تفسيره؟ السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ كانوا يؤكدون على هذه القضية على هذه المسألة،

يؤكدون على فهم معاني الأذكار ومدلولاتها، الآن لما وُجد من الناس من يُردِّد الأذكار ولا يفهم معناها، وُجد فيهم من يقول: الله أكبر، ويقوم في قلبه أمور كثيرة هي في قلبه أكبر من الله، وهو بلسانه يقول: الله أكبر.

ووُجد من يقول: لا إله إلا الله، ثم يمد يديه ويقول: مدد يا فلان، أغثني يا فلان، ألحقني يا فلان، وهو يقول: لا إله إلا الله، لكن هذا قول باللسان دون فهم ودون عمل، فالسلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قديمًا كانوا يؤكدون تمام التأكيد على فهم معاني الأذكار المأثورة.

فلما قال هذا الرجل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، قال: أوَ تعرف تفسيره؟ أو تدري ما تفسيره؟ فماذا قال الرجل؟

حاله مثل حال كثير من الناس، يرددون كلمات ولكن لا يدرون ما هي، فقال: أوَ تدري ما تفسيره؟ فقال الرجل: وما تفسيره؟ يعني ما يعرف، يسأل الحسن: وما تفسيره؟ يعني ما يعرف هو تفسير هذه الكلمة. وهذا حال كثير من الناس، يقول كلمات وهو لا يدري ما تفسيرها.

بل بسبب ذلك أصبح بعضهم يستخدم بعض الكلمات في غير موضعها، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كلمة: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، هذه كلمة استعانة، ويستعملها كثيرٌ من الناس في الاسترجاع، يقولون: مات فلان، أو صار لفلان حادث، يقولون: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، هذا مو مكانها، هذه كلمة استعانة، إذا تريد تفعل شيء، تقوم بعمل، تخرج من بيتك، تقوم بكتابة، تقول: (لا حول ولا قوة إلا الله) تطلب من الله الإعانة.

لكن إذا أُخبرت بمُصاب: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٥٥-١٥٦]؛ ما يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

لكن بعضهم يقول: لما سمعت فلان مات! يقول: مات! لا حول ولا قوة إلا بالله، ولهذا بالتنبيه بها في كتاب **[الاستقامة]** قال: كلمة: لا حول ولا قوة إلا الله هذه كلمة استعانة ويستعملها كثيرٌ من الناس في الاسترجاع، ما معنى في الاسترجاع؟ أي عندما يسمع بمصيبة يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

كل هذا سببه عدم الفهم؛ عدم فهم معاني الأذكار ومدلولاتها.

نرجع إلى قصة الحسن، الحسن قال للرجل: أوَ تدري ما تفسيره؟ قال: وما تفسيره؟ يعني هو ما يدري ما تفسيرها؟ قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، (إنَّا لله)؛ أي: أنا لله عبد؛ ففسرها له باختصار، (وإنَّا إليه راجعون)؛ أي

أنا لله راجع؛ لأن (إنَّا لله) تتكون من جملتين، الجملة الأولى، (إنَّا لله)؛ يعني نحن لله، والثانية: (وإنَّا إليه راجعون)؛ أي نحن راجعون إلى الله.

هذه فوائد كتبها هذا الحبيب يقول: من أسباب حُب الله حُب القرآن، قال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْقُرْآنَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**»، أثابك الله وجعلك من الصالحين، وبارك فيك.

قصة الحسن مازلنا معها: الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ لما سأل الرجل: قال: ما تفسيره؟ قال: وما تفسيره؟ يعني كأنه يقول: أنا لا أدري ما تفسير القصة، فبين لي، قال: (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون). قال: (إنَّا لله)؛ أي: أنا لله عبدٌ. (وإنَّا إليه راجعون)؛ أي: سنرجع يوم إلى الله، سنرجع يوم القيامة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فيقول الحسن: "فإذا علمت أنك لله عبدٌ وأنك إليه راجع؛ فاعلم أنك مسئول، وإذا علمت أنك مسئول فأعد للمسألة جوابًا، أما أن تقول: (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون) ولا تستوعب ما تعنيه هذه الكلمة، ما يكفي".

أُعيد كلام الحسن: قال: "(إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون). (إنَّا لله)؛ أي: أنا لله عبدٌ. (وإنَّا إليه راجعون)؛ أي: أنا لله راجع، فأقول: إذا علمت أنك لله عبدٌ، وأنك إليه راجع؛ فاعلم أنك مسئول، وإذا علمت أنك مسئول، فأعدَّ للمسألة جوابًا".

الرجل انتبه الآن! قال كلمة جميلة، قال: ما الحيلة؟ يعني أنا رجل الآن تجاوزت الستين وعندي تفريط وعندي تقصير، فما الحيلة؟ أعطني حيلة، ما الحيلة؟ قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: "الحيلة يسيرة"، قال: وما هي؟

اسمعوا الحيلة اليسيرة! قال: "أحسن فيما بقي يُغفر لك ما قد مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت بما بقي وبما مضي"، ففتح له باب مبارك للتوبة، يعني لا تلتفت إلى أخطائك الماضية تب إلى الله منها وأحسن فيما بقي، قد يكون الذي بقي يوم واحد أليس كذلك يا إخوان!

قد يكون الذي بقي يوم واحد، وقد يكون الذي بقي شهر واحد، وقد يكون الذي بقي سنة واحدة، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [سورة لقمان، من الآية:٣٤]؛ فقد يكون الإنسان مفرِّط ستين سنة مثلًا، ثم صدق مع الله التوبة، وأحسن فيما بقي، ويكون الذي بقي يومًا واحدًا، فما الذي يكون؟ العبرة بالخواتيم.

أحسن فيما بقي يُغفر لك ما قد مضى، وهذا من فقه السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في فتح أبواب الخير والتوبة، وأثر نصيحة العلماء، وأيضًا أثر الرجوع إلى العلماء في فتح أبواب الخير، وإلَّا غيرهم ممن لا حظ لهم من العلم قد يُغلق عليه باب التوبة.

الشاهد يا إخوان: أن معاني الأذكار المأثورة ومعرفة مدلولاتها من أهم الأمور التي ينبغي أن يَعتني بها المسلم، والحديث له متابعة وصِلة بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والله تعالى أعلم.. وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد..